"العجيب" مصطلحا نقديا بديلا للعجائبي

د. خالد التوزاني[1]

في سياق انفتاح الباحثين والنقاد العرب على المناهج الأدبية المعاصرة والنظريات الغربية في "علم قوانين إنتاج الخطابات، وشروط انبثاق المعنى مهما تعددت تمظهراته"[2]، ولجت اللغة العربية مصطلحات نقدية جديدة، من أبرزها "العجائبي" أو "الفانتاستيك" (fantastique) والذي انتقل من حقل تداوله بين الباحثين في الغرب، إلى حقل التداول العربي في أعمال النقاد والمبدعين العرب، محدثا هذا الانتقال اضطرابا واسعا في فهم "الفانتاستيك" وفي اختيار المصطلح العربي المناسب لترجمته، حيث تعددت المقابلات العربية لهذا المصطلح الوافد: فنجد العجائبي والغرائبي والخوارقي والخارق والأسطوري والنص الطليق والوهمي والخيالي والمدهش والغريب.. وغير ذلك من حصيلة الألفاظ الكثيرة والتي تشترك في التعبير عن ما هو غير مألوف ومثير للحيرة والدهشة والتردد والارتباك.. وهناك مِن النقاد مَن آثر استعمال المصطلح كما هو من خلال الترجمة الحرفية للكلمة الفرنسية (fantastique) أو الكلمة الإنجليزية (Fantastic)، بُغية الحِفاظ على الحمولة الدلالية لهذا المصطلح والتي أُشبع بها في الثقافة الغربية[3].

والجدير بالذكر أن المعاجم العربية الحديثة قد تأثرت بالمفهوم الغربي للعجيب[4]؛ حيث نجد في بعض المعاجم العربية المتخصصة، ذكرا للفانتاستيك مرتبطا بضرورة تجاوز الواقع تجاوزا كليا يوحي بوجود قطيعة مع هذا الواقع، وذلك بتوظيف التخيل الوهمي البعيد عما هو معروف، حيث يقول جميل صليبا: "ونحن اليوم نطلق "فانتاسيا" على كل تخيل وهمي متحررا من قيود العقل، أو على كل فاعلية ذهنية خاضعة لتلاعب تداعي الأفكار، أو على كل رغبة طارئة لا تستند إلى سبب معقول"[5]، وهو نفسه ما يذهب إليه سعيد علوش

---

[1] باحث أكاديمي في النقد الأدبي والخطاب الصوفي touzani79@hotmail.com

[2] تزفتان تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، ترجمة: الصديق بوعلام، تقديم: محمد برادة، دار الكلام، الرباط، ط1، 1993، ص:11.

[3] من هؤلاء الدارسين نذكر على سبيل التمثيل لا الحصر: محمد برادة وشعيب حليفي وعبد الجليل الأزدي وعبد الفتاح الشادلي وغيرهم.

[4] إذا كانت المعاجم العربية القديمة قد تأثرت بالمفهوم القرآني للعجيب، فإن المعاجم العربية الحديثة قد تأثرت بالمفهوم الغربي للعجيب، بل نقلت الاسم حرفيا بلفظ الفانتاستيك، فهل يدل ذلك على نوع من "الغُربة" أو "الاستلاب" تعيشه الثقافة العربية في الحقبة الحديثة والمعاصرة، أم أن الأمر يتعلق بنوع من التلاقح الحضاري والانفتاح على الآخر؟ ينظر: خالد التوزاني، أدب العجيب في الثقافتين العربية والغربية، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط: 1، 2015، ص: 35.

[5] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني- مكتبة المدرسة، بيروت، ط:1، 1983، ج:2، ص: 168.

في معجمه[1]، حيث لا يلج العمل الأدبي حقل الفانتاستيك، إلا إذا "تحرر من منطق الواقع والحقيقة في سرده، مبالغا في افتتان خيال القراء"[2]، موظفا في ذلك حتى الصور الوهمية والخيالية "إلى حد أنها لا تُصَدَّق، ولكنها تبهر الأنظار وتخطف الأبصار ولا تؤذي الجسم أو الوجدان، وترتفع بالإنسان فوق الواقع، وتحلق به في عالم الخيال"[3] الفسيح والخَلاَّق. وبذلك، وجد "الفانتاستيك" مكانه في الإبداع العربي خاصة الحديث والمعاصر، وبدأ بعض النقاد العرب في النبش عما يمت له بصلة في التراث العربي القديم، كسعيد يقطين وكمال أبو ديب وعبد الحي العباس وعبد النبي ذاكر[4]، وغيرهم. حيث نما الوعي تدريجيا بضرورة تكييف "الفانتاستيك" مع البيئة العربية الجديدة حتى تستمر حياته، وينشأ سليما من التشوه، منسجما مع خصوصيات المتن العربي وخاصة القديم منه وأيضا يراعي طبيعة المجتمع العربي الحالي والوضع الراهن.

هكذا، إذا كان وجود "الفانتاستيك" في الغرب قبل رحلته إلى فضاء تداول النقاد العرب، قد ارتبط بالرعب والخوف، ومَثَّلَ تمردا على الذات والمحيط، وتلذذا بالفوضى والفزع، عبر مسخ الطبيعي أو تدميره، وتحويله إلى مخلوقات عجيبة تثير الرعب، فإنه في سياق التداول العربي قد ارتبط بالجميل والممتع والمدهش، ووجد في معجم اللغة العربية ما زاده ثراء وغنى ونضجا، حيث راكم معاني الخرق والعجب والغرابة والدهشة وغيرها من الألفاظ العديدة التي تشكل حقلا دلاليا واسعا قد يقل نظيره في لغة أخرى غير اللغة العربية.

1- محاولة تأصيل العجيب

عادة ما يلجأ الباحث في شرح المصطلحات أو تعريفها إلى حقلي اللغة والاصطلاح؛ وإذا كانت الألفاظ تستعمل في الحقل الأول بمقتضى دلالتها اللغوية الحرفية الملفوظية أي المعنى المنطوق، فإنها في الحقل الثاني تأتي بمعاني جديدة يولّدها السياق التداولي والخلفية الفكرية التي تؤطر رؤية المصطلح، أي المعنى المفهوم. وتأسيسا على هذه الرؤية المنهجية الحذرة، فإن تحديد مفهوم "العجيب"، يستلزم تتبع مسارين متباينين لكنهما متكاملان، ويوصلان للمبتغى ذاته، أي معرفة معنى "العجيب" وحصره في تعريف موجز يكون جامعا لأغلب معانيه، مانعا للالتباس مع غيره من المصطلحات المتشابهة، وهذين المسارين هما:

---

[1] سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سوشبريس، الدار البيضاء، ط:1، 1985، ص: 97.

[2] المرجع والصفحة نفسهما.

[3] أحمد زكي بدري، معجم مصطلحات الدراسات الإنسانية والفنون الجميلة والتشكيلية، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط: 1، 1991، ص: 135.

[4] سعيد يقطين في: ذخيرة العجائب العربية. وكمال أبو ديب في: الأدب العجائبي والعالم الغرائبي. وعبد الحي العباس في أطروحته: بنية الخارق في سيرة الملك سيف بن ذي يزن. وعبد النبي ذاكر في: استراتيجيات الغرائبية في الرحلة البطوطية.

- أولا: استحضار المعاني التي يرد بها لفظ "العجيب" في بعض معاجم اللغة، لتحديد أصوله وتركيبه وكيفية انبنائه.
- ثانيا: استدعاء السياقات المختلفة التي يوظف فيها لفظ "العجيب"، وخاصة في بعض كتب العجائب والغرائب التي يحفل بها التراث العربي الإسلامي، حيث يتعلق الأمر بالمعنى الاصطلاحي للعجيب.

أ- **المعنى اللغوي للعجيب**

يتأسس مفهوم العجيب - حسب لسان العرب لابن منظور- على مبدأين اثنين: مبدأ الإنكار في قوله: "العُجْبُ والعَجَبُ إنكار ما يرد عليك لقلة اعتياده"[1]. ومبدأ الاستحسان، في قوله: "وشيءٌ مُعْجِبٌ إذا كان حَسَنًا جِدًا. والتَّعَجُّب أن ترى الشيء يُعجبك، تظن أنك لم تر مثله"[2]. أما سبب الإنكار فيحدده ابن منظور في قلة الاعتياد؛ ذلك أن الإنسان لا ينكر ما هو معتاد مألوف، كطلوع الشمس من المشرق، وإرضاع الأم لولدها، فهذا من المعتاد الذي لا يُقابل عادة بالإنكار. واللافت للنظر، أن الإنكار ليس شرطا دائما في العجيب، بل قد يكون رد فعل على استحسان الشيء وقبوله.

أما باقي المعاجم العربية الأخرى، فلم تختلف كثيرا عما أورده ابن منظور في تحديد معنى العجيب، ففي معجم "المحكم والمحيط الأعظم في اللغة"، نجد: "العُجْب والعَجَب إنكار ما يرد عليك لقلة اعتياده"[3]، و نجد في المعجم الوسيط: "العجب روعة تأخذ الإنسان عند استعظام الشيء، يقال: هذا أمر عجب، وهذه قصة عجب، وعجب عجاب: شديد (للمبالغة)"[4].

بتأمل دلالات لفظ "العجيب" في معاجم اللغة العربية وتتبع صيغه ومشتقاته واستعمالاته، نلحظ "وجود غزارة معجمية كبيرة.. للدلالة على العجيب"[5]، تدل دلالة واضحة على "حضور ثقيل، لكل ما هو عجيب في أذهان المتكلمين"[6]، مما يقوي دور المتلقي في صناعة العجيب واستمرار حضوره وتداوله، بتنويع صيغه التي تباينت من حيث المعنى والمبنى، لتسير في شكل تصاعدي باتجاه رفع وتيرة التعجيب كلما استقر العجيب وسكن، حيث كلما كان تعجبنا أكثر، كلما احتجنا إلى صيغة جديدة، ولذلك لا غرابة أن تتعدد صيغ العجيب في اللغة العربية.

---

[1] ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، (ت711هـ)، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، تح: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، 1981، مج: 4، ج:31، ص:2811، مادة: عجب.

[2] المصدر نفسه، ص: 2812.

[3] ابن سيده الأندلسي، علي بن إسماعيل (ت458هـ)، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، تح: مصطفى السقا وحسن نصار، معهد المخطوطات، جامعة الدول العربية، ط: 1، 1985، ج: 1، ص: 205.

[4] مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، تركيا، د.ط، د.ت، ج:2، ص: 854، مادة: عجب.

[5] جاك لوكوف، العجيب في الغرب القروسطي، ضمن: العجيب والغريب في إسلام العصر الوسيط، محمد أركون وتوفيق فهد وجاك لوكوف، تر: عبد الجليل الأزدي، نشر: الملتقى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط:1، 2002، ص: 58.

[6] حمادي الزنكري، العجيب والغريب: من لغو المعجم إلى كفاءة المتكلم، مجلة: التواصل اللساني، مج: 6، ع: 1و2، 1994، ص:78.

من أهم صيغ العجيب نجد: عَاجِبٌ، تدل على ثبوت حال العَجَب ودوامه من خلال تأكيده، كما قد تدل على الحدوث حسب ما أكده الزمخشري حين قال: "صيغة فاعل/عاجِب ترد للدلالة على الحدوث، كأن يُقال: هو حاسن الآن أو غدا وكارم"[1]، ومنه قوله عز وجل: [وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ][2]. كما نجد: عُجَابٌ وعُجَّابٌ: هو "الذي جاوز حد العَجَب"[3]، فكلما ازداد العَجَب وكثُر، أمكن القول إنه لأمرٌ عُجَابٌ أي كثير العجب. ويجوز في صيغة عجيب "ثلاث لغات هي: فَعيل وفُعَال وفُعَّال: رجل طويل، فإذا زاد طوله قلت طُوال. وفي القرآن [إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ][4] وعُجَّابٌ"[5]. وهناك صيغة: أعْجَابٌ وتَعَاجِيبٌ: "جمع العَجَب أعْجَابٌ"[6]، وقد عَجِبَ منه يَعْجَبُ عَجَباً، وتعَجَّب واستعْجَب... و"الاستعجاب: شدةُ التعَجُّب"[7]، والاسم: العَجِيبَةُ، والأُعْجُوبَة. والتعَاجِيبُ: العَجَائِب. و"العَجَائِب" جمع "عجيبة" في اللغة العربية على القياس، وهي كذلك جمع "عجيب" على غير قياس. قال ابن منظور: "جمعُ عجيب عجائب"[8]. وجدير بالذكر أن هناك صيغ أخرى للعجيب مفردة ومركبة يطول المقام عن تتبعها وشرحها، وليس هنا مقام التفصيل فيها، مثل "عجبات" و"العجب العجيب" و"عجيبٌ أعجبُ".. وغير ذلك[9].

نستنتج من خلال ما سبق، أن كل صيغ العجيب المشتقة على وجه الصفة المشبهة، مثل عُجَاب وعُجَّاب وعَجَبٌ وعَجِيبٌ.. ترد على سبيل المبالغة والزيادة في المعنى والثبوت وتأكيد الأمر المتعجب منه، إذ يُقال: إن هذا لشيء عَجِيب أو عَاجِب أو عُجَاب أوعُجَّاب. بل إن صيغة "العَجِيب" ذاتها، إنما هي صيغة للمبالغة والزيادة في المعنى الصادر عن الفعل (عَجَبَ)، وكأن الإنكار أو الاستحسان ينبغي أن يكون مبالغا فيه ليلج عالم العجيب، وإلا أصبح مألوفا وعاديا لا يثير أي دهشة أو استفهام.

هناك صيغة من صيغ العجيب متداولة بكثرة بين الباحثين والنقاد، ويتعلق الأمر بصيغة "العجائبي"، فما الفرق بين العجيب والعجائبي؟ وما صلتهما بالفانتاستيك؟

---

[1] الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (ت538هـ)، المفصل في علم العربية، دار الجيل، بيروت، ط:2، 1323هـ، ص: 230.

[2] سورة هود، الآية: 12.

[3] الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ)، معجم كتاب العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط: 1، 1988، ج: 1، ص:235.

[4] سورة: ص، الآية: 5.

[5] السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، (ت911هـ)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ش. وتع: محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد البجلوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، د.ت، ج:2، ص: 83.

[6] ابن سيده الأندلسي، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، مصدر سابق، ج: 1، ص: 205.

[7] الفراهيدي، الخليل بن أحمد، معجم كتاب العين، مصدر سابق، ص:235.

[8] ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ص: 2812، مادة: عجب.

[9] لتعرف مختلف صيغ العجيب من خلال أمثلة واستشهادات، ينظر كتابنا: أدب العجيب في الثقافتين العربية والغربية، مرجع سابق، ص: 21.

ب- أثر الترجمة في تعدد اصطلاحات العجيب

على الرغم من أن كثيرا من الباحثين والنقاد المعاصرين قد وظفوا لفظ "العجائبي" للدلالة على العجيب، إلا أن هذه الصيغة غير متداولة في التراث النقدي العربي القديم، ولا نعثر عليها في المعاجم اللغوية والاصطلاحية القديمة نسبيا، كما لا نجدها في المظان الأدبية العربية القديمة، على الرغم من الحضور المكثف لأدب العجائب والغرائب في التراث العربي الإسلامي. وقد يعود سبب هذا الغياب إلى عوامل موضوعية تتعلق أساسا بالبنية اللغوية للكلمة، فالمشهور عند علماء العربية أنه "إذا نُسب جمع باق على جمعيته، جيء بواحده ونُسب إليه"[1]، حيث إن "النسبة إلى الجمع في اللغة العربية قليلة من حيث المبدإ، لأن الأصل في النسبة أن تكون إلى المفرد، وقد تجوز إذا صار الجمعُ عَلَما، كقولنا: أنصاريّ، نسبة إلى الأنصار، وهم جمع، عَلَمًا على قوم بأعيانهم. ولما كانت العجائب والغرائب قد صارت مصطلحا أدبيا ذا مفهوم يدل على جنس من أجناس الأدب مُعَيّن لا ينصرف الذهن إلا إليه، فقد صار بمنزلة العَلَم"[2]، و"كأن معنى العجيب لا يفي بالحاجة فجيء به جمعا"[3]، لنحت مصطلح نقدي جديد، ولذلك أباحت الهيئات والمجامع اللغوية المعاصرة النسبة إلى الجمع عند الحاجة[4]، وهكذا يمكن أن ننسج على منوال العجائبي ألفاظ أخرى مثل الغرائبي والخوارقي وما نحا نحوهما. فما الدافع لاختراع هذه الصيغة "العجيبة" بما أنها تخالف مألوف بنية الكلمة في اللغة العربية ؟

لا يستخدم الناس اللغة لمجرد الإشارة إلى حالات شعورية أو ادعاءات أرضية، بل لتشكيل عقول بعضهم بعضا[5]، فاللغة أداة للتفكير والتأمل، ومن ثم فهي تتأثر بمحيطها القريب والبعيد، وتعيش في تواصل مع الموجودات، ضمن عالم يخضع لقانون البقاء للأصلح وللأنفع، كما أكد على هذا القانون الكوني الحق سبحانه وتعالى حين قال سبحانه: "فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ"[6]، ولا شك أن الحضارة الإسلامية منذ زمن نهضتها وريادتها، لم تكن تعيش معزولة عن العالم،

---

[1] ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله العقيلي الهمداني (ت769هـ)، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تح: حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ط:1، 1988، ج:2، ص: 489. وينظر كذلك: الزمخشري، المفصل في صنعة الإعراب، تح: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: 1، 1999، ص: 260.

[2] جعفر ابن الحاج السلمي، الأسطورة المغربية: دراسة نقدية في المفهوم والجنس، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط:1، 2003، ص: 181.

[3] حوار مع الباحث عبد الملك مرتاض، مجلة عمان الثقافية، ع: 112، تشرين الأول 2004، ص: 14.

[4] أصدر المجمع اللغوي قرارا في النسبة إلى جمع التكسير، وهذا نصه: "المذهب البصري في النسب إلى جمع التكسير أن يرد إلى واحده، ثم ينسب إلى هذا الواحد، ويرى المجمع أن ينسب إلى لفظ الجمع عند الحاجة كأداة التمييز أو نحو ذلك". ينظر: وافي عبد الواحد، فقه اللغة، دار النهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ط: 3، أبريل 2004، ص: 225-226.

[5] مايكل كورباليس، في نشأة اللغة، ترجمة: محمود ماجد عمر، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة، العدد 325، مارس 2006 م، ص: 15.

[6] سورة: الرعد، الآية: 17.

بل كانت دائمة التأثير والتأثر بكل ما يجري حولها، تستفيد وتفيد، تحاور وتلتقي وتتقاسم ثمرات العلم والاكتشافات مع غيرها من شعوب الأرض، وعلى الرغم من نكوص هذه الحضارة في بعض الأزمنة الصعبة، إلا منهج التواصل والتعارف ظل مستمرا، باعتباره توجيها ربانيا للإنسانية عموما وللأمة الإسلامية على وجه الخصوص، حيث قال عز من قائل: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"[1]، وهكذا، سيؤدي هذا التوجه التواصلي مع الآخر البعيد والغريب، إلى إغناء مكونات الثقافة العربية الإسلامية، وبموجب انخراط هذه الثقافة بعد منتصف القرن العشرين بشكل عميق في الحداثة بناء على القراءات الجديدة للتراث، وبناء على الترجمة التي تعكس حوار اللغات والحضارات والثقافات، فقد تبلورت مفاهيم ومقولات جديدة تستجيب لرغبة التلاقح الحضاري والتكامل الإنساني المنشود في ظل فسلفات جديدة تنادي بالمشترك الإنساني والسلم العالمي والعيش المشترك وحقوق الإنسان والتنمية وغيرها من المفاهيم التي تمت عولمتها وتصديرها للشعوب والأمم من خلال آلية الترجمة.

لم تكن الترجمة فعلا مستجدا في الراهن وافدا على الثقافة العربية، وإنما كان للترجمة بصمات واضحة في ازدهار الثقافة العربية عبر التاريخ، حيث كان العرب على وعي بأهمية إتقان لغات الأقوام الآخرين حتى قيل: "من تعلّم لغة قوم أمِنَ مكرهم"، وهكذا أسهم ازدهار الترجمة في البلاد العربية في تنشيط الحياة الثقافية والفكرية والعلمية، من خلال توليد مصطلحات جديدة تُضاف لمعجم اللغة العربية تنسجم مع تقدم المعرفة وتوسع مباحث العلوم وخاصة في ميادين الاختراع والابتكار، لكن تلك الترجمة قديما كانت تتم "وفق الاستعارة المجازية الملائمة للذوق العربي من جهة، ووفق انبناءات صرفية واشتقاقية خاضعة للصيغ والموازين العربية الأصيلة من جهة أخرى"[2]. بخلاف ما يقع الآن في العصر الحديث مع الآداب والعلوم الأجنبية، حيث طغت الترجمة الحرفية لبعض المصطلحات والألفاظ، وفي كثير من الأحوال يتم نقل الكلمة من بيئتها الأجنبية إلى حقل التداول ضمن السياق العربي دون تعميق البحث في التراث العربي القديم عما ينسجم من الألفاظ مع المفهوم الجديد الوافد من ثقافة الآخر، وهو ما جعل أحد الباحثين يؤكد أن "أخطر الظواهر المستحدثة لم تنشأ تلقائيا في أدبنا العربي، ولم تخضع في نموها للعوامل الذاتية"[3]، وينشأ عن هذه القضية المنهجية غياب الاتفاق بين الدارسين بشأن المصطلح المناسب، ليفتح الباب على مصراعيه أمام تأويلات الباحثين واختياراتهم الذاتية مع ما يثيره ذلك من

---

[1] سورة: الحجرات، الآية: 13.

[2] عبد الفتاح الشادلي، تجليات العجيب في المسرح المغربي: نماذج من العجيب السحري، أطروحة جامعية لنيل الدكتوراه، مرقونة بخزانة كلية الآداب- ظهر المهراز- فاس، الموسم الجامعي: 2005-2006، ص: 80.

[3] صلاح فضل، إشكالية المصطلح الأدبي بين الوضع والنقل، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية - ظهر المهراز- بفاس، ندوة المصطلح النقدي وعلاقته بمختلف العلوم، ع: 4، 1988، ص: 80.

لبس عند القارئ وربما فوضى في نقل المصطلحات من لغات أجنبية إلى معجم العربية وتوظيفها في السياق العربي وكأنها لفظة عربية محظة، مما يؤدي إلى تشويه الثقافة، إذ "اللغة مرآة للثقافة تعكسها وتعكس خصائصها الأساسية"[1]، كما أن "اللغة نفسها هي التي تُشكّل الثقافة وتحدد معالمها"[2]، ومن ثم فلغة هجينة ومشوهة قد تصنع ثقافة غريبة لا تمت بصلة لتاريخ الأمة التي تنطق بها اليوم.

بناء على التحليل السابق، لم يكن لفظ العجائبي أحسن حالا من لفظ الفانتاستيك، فهما لفظان غريبان عن اللغة العربية، فمن الواضح والأكيد أن "العجائبي" ترجمة لمصطلح أجنبي وافد على الثقافة العربية من الآداب العالمية، هو(fantastique)، حيث يحيل هذا المصطلح على اتجاه نقدي في الأدب الغربي، ينصب اهتمامه على تحليل نصوص "العجيب" ويحمل رؤية معينة لما هو عجيب وغريب متأثرة بنظرة المتلقي وتكوينه النفسي وبيئته الاجتماعية، وقد تبنى النقد العربي المعاصر هذا المفهوم في سياق التجريب والانفتاح على تجارب الآخرين وتوسيع أفق القراءة والنقد، واستثمار ذلك أيضا في الإبداع. غير أن التحديد الاصطلاحي للعجيب ينبغي أن تتم مقاربته انطلاقا من الثقافة العربية الإسلامية وليس من ثقافة أخرى أجنبية، خاصة عندما يُطلب من النقد الأدبي والثقافي الاشتغال بتحليل نصوص عربية أصيلة لها جذور في الهوية العربية الإسلامية وتختزن كثيرا من خصوصيات هذه الهوية.

ت- المعنى الاصطلاحي للعجيب

يمكن تحديد المعنى الاصطلاحي للعجيب من خلال تتبع الدلالات التي يحضر بها في بعض أمهات كتب التراث العربي الإسلامي، وخاصة تلك الكتب التي تجاوزت جمع العجيب إلى التنظير له، وفي هذا السياق نستحضر كتاب "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات" لزكريا القزويني[3]، والذي يُعَدُّ "أهم كتاب تراث في العجيب والغريب"[4]، بل اعتبره بعض الدارسين "فلتة من فلتات النقد العربي: اهتمت بالسرد ونقده"[5]. ولعل اهتمام الباحثين بهذا الكتاب، يرجع لتضمنه مقدمة تنظيرية تناول فيها المؤلّف "العجيب" و"الغريب" بالبيان والتبيين، ونظر إليهما نظرة فاحصة، حاول التمييز فيها بين هذين اللفظين، والفصل بينهما

---

[1] جمعة سيد يوسف، سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة، العدد 145، يناير 1990، ص: 156.

[2] المرجع والصفحة نفسهما.

[3] القزويني، زكريا بن محمد بن محمود الكوفي (ت 682هـ)، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط:1، 2000.

[4] وحيد السعفي، العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن: تفسير ابن كثير أنموذجا، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط: 1، 2007، ص: 40.

[5] جعفر ابن الحاج السلمي، الأسطورة المغربية: دراسة نقدية في المفهوم والجنس، مرجع سابق، ص: 183.

في المعاني وفي النماذج التي استدل بها، خلافا للاستعمال الشائع الذي لا يميز بين هذين اللفظين[1].

من الواضح أن زكريا القزويني لم يسع في كتابه "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات" إلى حشد الأعاجيب ورصد الغرائب من أجل إدهاش القارئ وإمتاعه وإثارة فضوله واهتمامه، وإنما أيضا دفعه للنظر إلى تلك العجائب نظرة خاصة مخالفة لأنس العادة وجري المألوف، الهدف منها؛ "التفكر في المعقولات، والنظر في المحسوسات، والبحث عن حكمتها وتصاريفها، ليظهر له حقائقها، فإنها سبب اللذات الدنيوية والسعادات الأخروية"[2]، حيث نفهم من ذلك أن العجيب – في نظر القزويني- ليس مطلوبا لذاته أو مقصودا بعينه، وإنما هو وسيلة لغاية أسمى وأكبر، تتمثل في تأمل الكون وتدبر عجائب الخلق تأملا يوصل إلى لذة معرفية وشعور وجداني بالحق، وهي أحاسيس عبارة عن طاقات من الجمال والجلال على شكل ذرات مبثوثة في ثنايا كل عجيب وغريب، ولكن لا يُتاح لأي متلق عابر أو مشاهد ينظر بالبصر فقط ولا يدرِّب بصيرته وقلبه على الفهم والاستنباط أن يتزود من تلك الطاقة، وعلى قدر الاستعداد يكون الاستمداد، ولذلك لا يمكن لمن أمعن النظر في عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، إلا أن يزداد من الله تعالى "هداية ويقينا ونورا وتحقيقا"[3]، حسب رؤية زكريا القزويني للعجيب. فكيف حاول القزويني تعريف العجيب؟

عرَّف القزويني العجيب، قائلا: "العَجَبُ الحيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء، أو عن معرفة كيفية تأثيره فيه"[4]، ومَثَّلَ له بخلية النحل عند من لم يسبق له أن رآها، قائلا: "مثاله أن الإنسان إذا رأى خلية النحل، ولم يكن شاهده قبل، لكثرت حيرته، لعدم معرفة فاعله، فلو علم أنه من عمل النحل لتحيَّر أيضا، من حيث إن ذلك الحيوان الضعيف، كيف أحدث هذه المسدسات.. فهذا معنى العجب وكل ما في العالم بهذه المثابة"[5]. فعند القزويني كل ما في العالم موضوع للعجب عند التأمل فيه، غير أن الاعتياد عليه، هو ما يذهب بالحيرة، فما من شيء صغير ولا كبير "إلا وفيه من العجائب ما لا يُحصى، وإنما سقط التعجب هنا، للأنس وكثرة المشاهدة"[6]. وهو معنى لطيف فيما يبدو من حيث إن الشيء يبلى إذا طال وقوع البصر عليه، وتمجه النفوس ولا يصبو إليه أحد[7].

إذا استحضرنا دلالة "العجيب" في اللغة، سنلاحظ أنها تختلف بعض الشيء عما ذكره زكريا القزويني في تحديده لهذا المصطلح؛ فالعجيب ليس إنكارا للشيء ولا استحسانا له

---

[1] خالد التوزاني، أدب العجيب في الثقافتين العربية والغربية، مرجع سابق، ص: 39.

[2] زكريا القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، مصدر سابق، ص: 8.

[3] المصدر والصفحة نفسهما.

[4] المصدر نفسه، ص: 10.

[5] المصدر نفسه، ص: 9.

[6] زكريا القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، مصدر سابق، ص: 13.

[7] خالد التوزاني، أدب العجيب في الثقافتين العربية والغربية، مرجع سابق، ص: 41.

فحسب، وإنما رد فعل نفسي أيضا، قائم على مبدإ مركزي هو "الحَيرة"، ولعل سبب هذه الحيرة ليس عدم اعتياد الشيء والأنس به وألفته، بل تولد الحيرة عندما يعجز المتلقي عن معرفة الأسباب والعلل المفسرة لما يراه "عجيبا"، وبهذا المعنى فإن الحيرة عجزٌ عن الفهم، وجهلٌ بالكيفية التي وُجِدت عليها الظاهرة العجيبة، ومن ثم، لا تزول الحيرة إلا بالعلم والمعرفة. ويلتقي تعريف القزويني للعجيب مع ما ذهب إليه الجرجاني (ت816هـ) في التعريفات حين قال: "العجب انفعال النفس عما خفي سببه"[1]. ونفهم من هذا كله، أن العجب ينبغي أن يسقط حينما يعرف المتلقي سبب الظاهرة، إلا أن الواقع يؤكد أن معرفة السبب غير كافية لإبطال مفعول العجيب، بل قد تكون معرفة سبب العجيب بابا لمزيد من التعجّب والتّحير، وهو ما جعل القزويني يستدل بمثال خلية النحل قائلا: "فلو علم أنه من عمل النحل لتحيَّر أيضا، من حيث إن ذلك الحيوان الضعيف، كيف أحدث هذه المسدسات"[2]، وبذلك ليس بالضرورة أن يبطل العجب بظهور السبب كما يشاع بين الناس.

نخلص إلى أن مفهوم العجيب يدور في فلك معنيين: الأول التعجب بمعنى الحيرة والدهشة أمام الشيء "الجليل" غير المألوف أو الذي خفيت أسبابه، والثاني التعجب بمعنى استحسان الشيء "الجميل"، حيث يتكامل الجلال مع الجمال، ويتفاعل العقل مع الوجدان، ويحضر المجرد في ثنايا المحسوس، ويتداخل عالم الغيب مع عالم الشهادة، لتأسيس معنى "العجيب" في الثقافة العربية الإسلامية. وتتعدد صيغ العجيب لتعكس مستويات متعددة ومتباينة من التعجيب المستمر والمتواصل. كما أن العجيب مصدر للعلم والمعرفة، ودافعٌ للإبداع والتجديد، لأن تجاوز الحيرة يقتضي إعمال الفكر بغية الوصول إلى تفسيرات أو بدائل تعيد التوازن للذات المتعجبة، حيث يمكن لطول التأمل والتفكر في عجائب الكون باعتباره كتابا منظورا أن يوصل إلى معرفة الحق، ومن عرف الحق فقد أدرك الحقيقة التي لا يزيغ عنها إلا هالك، وهي حقيقة الوحي أي القرآن الكريم باعتباره الكتاب المسطور، فمن لم يقرأ الكتابين؛ الكتاب المسطور والكتاب المنظور، لم يرتق في العلم، وكان عالة على غيره، وعبئا ثقيلا على أهله وأمَّته، كما قال الله تعالى في وصف وحيه: "لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ"[3]. وتأسيسا على هذا التحليل، يمكن القول إن معنى "العجيب" في التراث العربي الإسلامي ليس بالضرورة مرادفا للخيال والوهم والباطل، وإنما قد يراد به الحق والجوهر وكنه الشيء، وقد وصف الجن القرآن الكريم وهو كلام حق من الحق في عليائه، لما سَمِعَهُ قالوا: " إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا"[4]، وبغض النظر عن اختلاف التفاسير في رؤيتها لكلمة "عجبا": هل القرآن

---

[1] الجرجاني، علي بن محمد بن علي أبو الحسن (ت 816هـ)، التعريفات، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:1، 1984م- 1405هـ، ص: 85.

[2] زكريا القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، مصدر سابق، ص: 10.

[3] سورة: فصلت، الآية: 42.

[4] سورة: الجن، الآية: 1-2.

كلام عجيب أم أن الجن تعجبت منه بمعنى الاستحسان والإعجاب والدهشة؟ إلا أن المراد من استحضار هذه الآية هو التأكيد على خصوصيات معاني "العجيب" في الثقافة العربية الإسلامية واختلافه عن أوجه استعماله في مجالات أخرى أدبية وإبداعية وفلسفية.

ثبت المصادر والمراجع

- أدب العجيب في الثقافتين العربية والغربية، خالد التوزاني، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط: 1، 2015.
- الأسطورة المغربية: دراسة نقدية في المفهوم والجنس، جعفر ابن الحاج السلمي، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط:1، 2003.
- التعريفات، الجرجاني، علي بن محمد بن علي أبو الحسن (ت 816هـ)، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:1، 1984م- 1405هـ.
- تجليات العجيب في المسرح المغربي: نماذج من العجيب السحري، عبد الفتاح الشادلي، أطروحة جامعية لنيل الدكتوراه، مرقونة بخزانة كلية الآداب- ظهر المهراز- فاس، الموسم الجامعي: 2005-2006.
- سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، جمعة سيد يوسف، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة، العدد 145، يناير 1990.
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله العقيلي الهمداني (ت769هـ)، تح: حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ط:1، 1988.
- صلاح فضل، إشكالية المصطلح الأدبي بين الوضع والنقل، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية – ظهر المهراز- بفاس، ندوة المصطلح النقدي وعلاقته بمختلف العلوم، ع: 4، 1988.
- فقه اللغة، وافي عبد الواحد، دار النهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ط: 3، أبريل 2004.
- في نشأة اللغة، مايكل كورباليس، ترجمة: محمود ماجد عمر، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة، العدد 325، مارس 2006.
- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، القزويني، زكريا بن محمد بن محمود الكوفي (ت 682هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط:1، 2000.
- العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن: تفسير ابن كثير أنموذجا، وحيد السعفي، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط: 1، 2007.
- العجيب والغريب في إسلام العصر الوسيط، محمد أركون وتوفيق فهد وجاك لوكوف، تر: عبد الجليل الأزدي، نشر: الملتقى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط:1، 2002.
- العجيب والغريب: من لغو المعجم إلى كفاءة المتكلم، حمادي الزنكري، مجلة: التواصل اللساني، مج: 6، ع: 1و2، 1994.
- لسان العرب، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، (ت711هـ)، دار المعارف، القاهرة، تح: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، 1981.
- المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، ابن سيده الأندلسي، علي بن إسماعيل (ت458هـ)، ، تح: مصطفى السقا وحسن نصار، معهد المخطوطات، جامعة الدول العربية، ط: 1، 1985.

- مدخل إلى الأدب العجائبي، تزفتان تودوروف، ترجمة: الصديق بوعلام، تقديم: محمد برادة، دار الكلام، الرباط، ط1، 1993.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، (ت911هـ)، ش. وتع: محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- معجم كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ)، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط: 1، 1988.
- معجم مصطلحات الدراسات الإنسانية والفنون الجميلة والتشكيلية، أحمد زكي بدري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط: 1، 1991.
- المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني- مكتبة المدرسة، بيروت، ط:1، 1983.
- معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سوشبريس، الدار البيضاء، ط:1، 1985.
- المفصل في صنعة الإعراب، الزمخشري، تح: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: 1، 1999.
- المفصل في علم العربية، الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (ت538هـ)، دار الجيل، بيروت، ط:2، 1323هـ.